بداية الطريق نحو السجن

بقلم الدكتور
عبد الهادي التازي

عرف د. التازي بانه صاحب مذكرات لا يترك سانحه مرت به في يومه دون ان يكتب عنها شيئا ، عرفته بذلك مجالس شيوخه وزملائه وطلبته ، وكل الذين كانت لهم معه صلة.. وهذه سطور من ذكرياته التي تحمل عنوان (نموذج من حياة) والتي يهيئها للطبع .

« ... وكان قد قدم علينا من الرباط عمي الحاج احمد مع صديقين له شابين هما السيدان أحمد بو هلال والمهدي الزبدي ، وقد صحبوا معهم العدد الثاني من مجلة « السلام » المؤرخة في رجب ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣ ، والتي كان يصدرها بتطوان الشيخ محمد داود. تناولتها لاتصفح صورها بينما كان الحاج أحمد يتحدث عن جريدة « عمل الشعب » التي يديرها الاستاذ ابن الحسن الوزاني بالفرنسية .

ما كان الحاج أحمد ينفكّ عن الاشادة بعمل الوطنيين وكفاحهم مستعينا بالسيد بو هلال في ترجمة « عمل الشعب » ، وبالزبدي فيما يوجد في ثنايا مجلة « السلام » !

لقد أخذت الدفتر وبدأت انقل من المجلة قصيدة (نموت ليحيا الوطن) التي نظمها الاستاذ علال الفاسي ، استعدادا لحفظها .

وأصبحت أتحدث للغد في المدرسة بأحاديث الحاج أحمد ! ونمي الخبر الى المدير الاستاذ الرجراجي الذي لم يكن مشجعا لهذه الاندفاعات لما عرف عنه من محافظة.

لكننا لم نشعر ذات يوم الا والمدرسة تستحيل الى جو وطني صاخب ، وكان هذا بسبب حلول جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف (محمد الخامس) بفاس يوم تاسع وعاشر مايه عام ١٩٣٤ ...

لقد خصص له الوطنيون استعدادا منقطع النظير ، وتردد الشريف مولاي العزيز الوزاني على المدارس الوطنية جميعا يلقن التلاميذ نشيد :

يا مليك المغرب يا بن عدنان الابيّ ...

ذلك الاستعداد الذي هال « الاستعلامات الفرنسية » فدبرت الحيلة . ولم نشعر الا وهو ، أي العاهل الكريم ، يضطر لقطع زيارته لفاس في اليوم الثالث الذي كان يصادف يوم الجمعة حيث كانت شوارع المدينة تكتسي حللا من الزينة وبدت كأنما هي خدر عروس !

لقد تكهرب جو المدرسة بعد هذه الحادثة، وأمسينا ـ نحن تلاميذ الصف الاول ـ من دعاة الوطنية بالرغم مما كنا نعانيه من مقاومة . لقد كنا نغامر بمستقبلنا ومن دون ان نعرف الى أين نسير . كنت أكتب على جدران المدرسة (يحيا الوطن) فأعرض قدميّ الى شد « الفلق » ووابل الضرب ...

لم تكن زيارة الحاج احمد لنا صحبة رفيقيه لتذهب دون أن تترك صداها البعيد في نفسي . فلقد أخذت أميل الى الاعتقاد بأن (مدرسة الرجراجي) غير وطنية ! وقد غذى فيّ هذا الشعور رفاق لي كانوا من أبناء (مدرسة النجاح) التي يديرها الاستاذ أبو الشتاء الجامعي ، وهكذا أقنعت والدي أن ألتحق بها صباح الاحد الاول من جمادى الاولى ١٣٥٢ ! (١٢ غشت ١٩٣٤) .

وأعترف انني وجدت نفسي من تلامذتها في فجوة بعيدة ، فان الكتب المستعملة هنا على غير ما كنت أعهد ! فهناك « أجرومية » وهناك نحو واضح » ! وهناك فقه « ابن عاشر » وهنا فقه غيره !.. ومع ذلك فقد كان عليّ ـ حتى لا أنهزم ـ أن أكتم عن والدي تلك المشاعر ...

وجاء دوري لزيارة ـ غير محضّرة ـ للرباط لاول مرة يوم الاحد ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٣ (٧ اكتوبر ١٩٣٤) .

لم أكن أعرف قبل هذا التاريخ غير بعض ضواحي فاس : فلقد حاولت ذات مرة أن أصحب والدي الى مدينة القصر الكبير بالمنطقة الاسبانية من المغرب عندما كان يزوره لصلة الرحم ، لكنه جواز السفر كان في جملة ما تعذّر به ... ولهذا فلم تعدو زيارتي مدينة زرهون حيث كان والدي يروح كل سنة بمناسبة موسم الفاتح المولى ادريس ، ومدينة مكناس التي قد تكون منعرجا له عند الاياب ، ومدينة (صفرو) التي كنا نقصدها للنزهة أحيانا ، وحمّة مولاي يعقوب التي رحلنا اليها ذات يوم على البغال للتداوي ، وبادية أولاد جامع ...

لقد اقترنت رحلتي الاولى للرباط بعدة انطباعات كان لهـا اثر كبير عليّ .. كنت ابن أربع عشرة سنة أو تزيد قليلا ، سافرنا صحبة الاسرة كلها حيث نزلنا ضيوفا في درب النجار على العم الحاج أحمد .

لم يكن من السهل عليّ ان أتصل بالاطفال الصغار ، فلقد كانوا جميعا في مدارسهم ! انه اكتوبر كما نرى !

وقد سمعت ـ ولا أنسى هذا أبدا ـ سؤالا يتوجه الى والدي : هل ان المدارس بفاس معطلة ؟ وسمعتهم يقولون ، وهذا ما لا أنساه أيضا : ان الدروس كحلقات السلسلة ، اذا افتقدت منها حلقة واحدة تفككت جميعها.

تلقيت بعض الاسئلة من بعض الكبار الذين كانوا يحضرون الضيافات التي يقيمها أبناء العم بمناسبة زيارتنا، في الاسئلة ما كنت أعرف الجواب عنها ، لكن فيها ما كان يستعصي عليّ بالرغم من انه كان في مستوى سني وصفتي !

أذكر انه حضر بعض المجالس الشيخ سيدي المدني ابن الحسني، والشاعر سيدي اليمني الناصري وغيرهما.

وقد ذهبنا يوما صحبة العم الحاج أحمد الى مراكز الكشافة الحسنية في بناية معلقة بناحية بوقرون ... وكان ذلك بمناسبة خاصة لعلها ذكرى مرور سنة على تأسيسها .

ثم كان يوما خالدا بالنسبة اليّ ، يوم زرنا (مدرسة چسوس) التي يديرها الشاب الحاج أحمد بلافريج ، وكانت المدرسة النموذجية الوحيدة من نوعها ، وكان للعم الحاج العباس شقيق الحاج أحمد ضلع في القيام على بنائها ..

أذكر ان الالسن كلها في البيت وفي الشارع كانت تلهج بذكر بلافريج !

وصحبة المدير والعم والوالد طفنا في جلّ اقسام المدرسة والتلاميذ يدرسون وهم في سن متقاربة ويرتدون لباسا شبه موحد ، ويحفظون القرآن على غير ما اعتدت رؤيته وسماعه !

لا شك ان بعض هؤلاء الاطفال كانوا يغبطونني على هذه الحرية التي جعلت مني سائحا في وقت ينهمكون فيه على تحمل التكاليف وتحرير الواجبات !

لقد ارتسمت في مخيلتي صورة لما ينبغي أن تكون عليه المدرسة ، ولما ينبغي أن يكون عليه المدير .

وعدنا الى فاس ، وسمعنا أشياء كثيرة على كل حال ، وحكيت لزملائي طويلا وطويلا عن رحلتي ...

وقد دفع بي الطموح الى ان أكتب الى بعض الجرائد في هذه الفترة ، فسجلت لي جريدة « الامة » الجزائرية بتاريخ الثلاثاء ٢٧ رمضان ١٣٥٤ (٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩٣٥) تعليقا على مقال صدر في جريدة « الفتح » القاهرية حول الصوم .

وقد اعتاد الوطنيون أن يتصيدوا بعض المناسبات من أجل توعية الجمهور ، فهم يقيمون ذكريات تأبين لبعض الشعراء والعظماء ، وهم يحتفلون بهجرة الرسول وعيد المولد ليذكروا الناس بتضحيات الصحابة في سبيل مبادئهم ، فكنت أحضر رفقة والدي هذه المظاهرات ...

وكان فيما حضرته معه تجمع بطالعة فاس لبعض طلبة شمال افريقيا ، بعد أن منعت السلطات الفرنسية انعقاد مؤتمر الاتحاد بالرباط ، خطب هناك عدد من الاساتذة حيث سمعنا لاول مرة من السيد منجي سليم ينشد :

حيّوا أفريقيا ! حيوا أفريقيا حيوا أفريقيا يا عباد !
شبابها يبغي الاتحاد أشبالها تأبى الاضطهاد !

ولما كان الاستعمار يعتمد على بعض دعاة الطرق الصوفية الى أغراضه فقد شنها الوطنيون حملة ضد سائر الطرق بما فيها « التيجانية » ، وقد وجدت في نفسي هذه الدعاية استجابة فسمحت لنفسي بترديد انتقاد الشيخ التيجاني ، بمحضر عمي الحاج أحمد التازي الذي لم أكن أتصور انه تيجاني مع انه كان أستاذي في الوطنية ...

لقد تعرضت لعتاب متتابع واستهدفت لتأديب كان له اثره في بعض ما كتبته على صحيفة « البصائر » الجزائرية حول « السعادة » وهل تسكن القصور أو الاكواخ ؟

وبالرغم من حمّى نافض أنهك مني قواي فقد تماسكت على نفسي لاشارك في مظاهرة رمضان ١٣٥٥ (١٦ نوفمبر ١٩٣٦) التي دعت اليها كتلة العمل الوطني احتجاجا على اعتقال الثلاثة : علال الفاسي ، محمد الوزاني ، محمد اليزيدي .

لم أشعر ـ وأنا أتتبع أقوال الخطباء ـ الا وأنا محاصر في جامع الرصيف مع بقية المتظاهرين ، حيث أخذت زوايا الجامع تتقاذفنا اتقاء لخناجر الحرس الحكومي الذي حضر لقمع الحركة ، وفي منتصف الليل كنا جميعا في (سجن عين قادوس) ... حيث أصبحت أحمل رقم ١٨٩٤٣ . انها بداية مسيرة النضال الطويل المرير ... » .

صدر حديثا